(٥) القرآن كتابي

بعث الله أنبياء ورسلًا كثيرين أفضلهم محمد ﷺ، وأنزل كتبًا عديدة، أفضلها القرآن الكريم، فهو يحوز فضل هذين الوجهين جميعًا، فهو خير كتاب أنزله الله على خير رسول من رسل الله.

وسأحكي لكم اليوم المشهد العظيم الذي فيه نزل خير كتاب على خير رسول ﷺ، فافتحوا لي قلوبكم وأعطوني أسماعكم لأروي لكم هذا المشهد كما حدث في تلك الليلة العجيبة:

اسمي غارُ حراء.

لعلَّك سمعت باسمي هذا من قبل.

وسوف تعرفني جيِّدًا حين تنظر في صورتي، سترى مكانًا في قمَّة الجبل، يشبه غرفة صغيرة، أنا موجود في جبل النور، أحد جبال مكة المكرَّمة.

في الزمان البعيد، قبل أن يبعث الله نبينا ﷺ بالإسلام، كان نبينا يأتي إليَّ ويتعبَّد في داخلي، يتفكَّر في السموات والأرض، ويدعو خالقهما سبحانه.

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك، حدث أمر عجيب، لقد كان نبينا محمَّد يصلِّي لله كعادته، يصلِّي لله ويتعبَّد فجاءه ملك عظيم من ملائكة الله، لقد هبط عليه من السماء، كان هذا الملك العظيم هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رئيس الملائكة، وهو أمين الوحي الذي ينزل بأوامر الله تعالى إلى أنبيائه ورسله، وهو الذي نزل بالقرآن على نبينا محمد ﷺ، لقد وقف جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمام نبينا واحتضنه وقال له:

- اقرأ يا محمد!

- فأجابه النبي ﷺ فقال له: «**ما أنا بقارئ**»، وقد كان نبينا ﷺ أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يقدِّر الله له تعلُّم القراءة والكتابة حتى تكون معجزتُه هي أن يأتي بكتاب يعجز عن الإتيان بمثله جميع القرَّاء والكتَّاب، فيعلم الناسُ أنَّه نبي من عند الله.

- أكَّد جبريل على النبي الأمر، فقال له: اقرأ يا محمد!
- وأكَّد النبي الجواب: «**ما أنا بقارئ**».
- وعاد جبريل ليقول لنبينا محمد ﷺ: اقرأ!
- والنبيُّ يقول نفس الجواب: «**ما أنا بقارئ**».

وبعد أن أكَّد جبريل على أن النبي لا يستطيع القراءة من عند نفسه أخبره بالقرآن الذي جاءه من عند الله بقوله سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق:١-٥].

قرأ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هذه الآيات على نبينا ﷺ ثمَّ انصرف، وقد ذهب النبي ﷺ بعدها إلى بيته، وأخبر زوجه السيدة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، فذهبت معه إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل وكان عالمًا بالكتب السابقة، فأخبره النبيُّ بما رأى وما سمع، وقرأ عليه الآيات التي قرأها عليه جبريل، فابتسم ورقة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وطمأن النبي، وأخبره بأن هذا الملك الذي جاءه بالقرآن هو ملك الوحي جبريل، وأنه هو الذي كان ينزل على أنبياء الله

ورسله، ومعنى ذلك أنه نبي هذه الأمة[١].

هكذا يا أعزائي نزل القرآن على نبينا، في ليلة القدر، في شهر مضان، كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [سورة البقرة:١٨٥].

وكما قال لنا سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة القدر].

إنَّ القرآن هدى ورحمة، وخير وبركة، وعزٌّ ورفعة لمن حفظه، وداوم على تلاوته، وقرأه بفهم، وعمل بما فيه من أوامر الله ونواهيه.

هذه قصتي، قصة غار حراء، في جبل النور.

أسعد غار في الدنيا، في أسعد جبل، بأكرم بلد، هي مكة المكرَّمة.

(١) حديث متفق عليه؛ رواه البخاري (٣)، ومسلم (٤٢٢).